

المسارعة إلى التوبة النصوح

عناصر الخطبة

تعريف التوبة وللمن تجب

لماذا نتوب؟ فضائل التوبة

كيف يتوب العبد؟

ما يعين على التوبة

أولاً - تعريف التوبة: التوبة في اللغة: تدور حول معاني الرجوع، والعودة، والإنابة، والندم. ([١])

التوبة في الشرع: هي ترك الذنب علماً بقبحه، وندماً على فعله، وعزماً على ألا يعود إليه إذا قدر، وتداركاً لما يمكن تداركه من الأعمال، وأداءً لما ضيع من الفرائض؛ إخلاصاً لله، ورجاءً لثوابه، وخوفاً من عقابه، وأن يكون ذلك قبل الغرغرة، وقبل طلوع الشمس من مغربها. ([٢])

ثانياً - التَّوبَةُ فِي حَقِّ كُلِّ فَرْدٍ إِذَا اسْتُكْمِلَتْ شُرُوطُهَا مَقْبُولَةٌ مَا لَمْ يُغْرَغَرْ:

قال الشيخ حافظ حكمي رحمه الله: وَتُقْبَلُ التَّوبَةُ قَبْلَ الْغُرْغَرَةِ. . . كَمَا أَتَى فِي الشَّرْعَةِ الْمُطَهَّرَةِ

وهذا فيه مسألتان: الأولى: في ذكر واسع فضل الله تعالى في قبول توبة العبد: التَّوبَةُ إِذَا اسْتُكْمِلَتْ شُرُوطُهَا مَقْبُولَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ كُفْرًا كَانَ أَوْ دُونَهُ، وَقَدْ دَعَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَيْهَا جَمِيعَ عِبَادِهِ.

١ - فَدَعَا إِلَيْهَا مَنْ قَالَ: الْمَسِيحُ هُوَ اللَّهُ، وَمَنْ قَالَ: هُوَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَمَنْ قَالَ: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ، وَمَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، وَمَنْ دَعَا لِلَّهِ الصَّاحِبَةَ وَالْوَلَدَ فَقَالَ لَهُمْ جَمِيعًا {أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: ٧٤].

٢- ودعا إليها من هو أعظم مُحَادَّةً لِلَّهِ مِنْ هَوْلَاءِ وَهُوَ مَنْ قَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى، وقال: مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ مُوسَى: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} [النَّازِعَاتِ: ١٧-١٩].

٣- ودعا إلى التَّوْبَةِ مِنْ عَمَلِ أَكْبَرَ الْكِبَائِرِ وَهِيَ الشِّرْكَ وَقَتْلُ النَّفْسِ بِدُونِ حَقٍّ وَالزَّوْنَا، فَقَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الْفُرْقَانِ: ٦٨-٧٠].

٤- ودعا إليها مَنْ كَتَمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البَقَرَةِ: ١٦٠-١٥٩].

٥- ودعا إليها الْمُشْرِكِينَ قَاطِبَةً فَقَالَ بَعْدَ الْأَمْرِ بِقَتْلِهِمْ حَيْثُ وَجِدُوا: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التَّوْبَةِ: ٥].

٦- ودعا إليها الْمُنَافِقِينَ قَاطِبَةً فَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} [النِّسَاءِ: ١٤٦].

٧- ودعا إليها جَمِيعَ الْمُسْرِفِينَ بِأَيِّ ذَنْبٍ كَانَ فَقَالَ تَعَالَى: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ} [الزُّمَرِ: ٥٣-٥٤] وَغَيْرُهَا مَا لَا يُحْصَى، بَلْ لَمْ يُرْسِلِ اللَّهُ تَعَالَى الرُّسُلَ وَيُنْزِلِ الْكُتُبَ إِلَّا دَعْوَةً مِنْهُ لِعِبَادِهِ إِلَى التَّوْبَةِ لِيَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. ([٣])

وتأمل عظم ذنب هذا الرجل وسعة فضل الله عليه لما علم منه صدق التوبة عن أبي سعيد الخدري، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: " كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَذَلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَاتَّاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَذَلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ:

إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ، فَانْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَآتَاهُمُ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتَهُمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ"، قَالَ قَتَادَةُ: فَقَالَ الْحَسَنُ ذَكَرَ لَنَا، أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ ([٤]) وَفِي رِوَايَةٍ "فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ؛ فَنَاءَ بِصَدْرِهِ ثُمَّ مَاتَ؛ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَكَانَ إِلَى الْقَرِيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ مِنْهَا شَيْبَرًا فَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا([٥])"

الثانية - الزمن الذي تقبل فيه التوبة: وهذا فيه فرعان: الأول- زمان التوبة بالنسبة لعمر لكل فرد. والثاني- زمان التوبة بالنسبة لعمر الدنيا.

أَمَّا زَمَانُهَا بِالنسبة لعمر الفرد فَهُوَ أَنْ تَكُونَ قَبْلَ الْغُرُورَةِ وَهِيَ حَشْرَجَةُ الرُّوحِ فِي الصَّدْرِ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ الْإِحْتِضَارُ وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا مَا يَلِي:

١- قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا، وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} توبة الله على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد، فأخبر هنا -أن التوبة المستحقة على الله حق أحقه على نفسه، كرما منه وجودا، لمن عمل السوء أي: المعاصي {بِجَهَالَةٍ} أي: جهالة منه بعاقبتها وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه بنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تنول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه، فكل عاص لله، فهو جاهل بهذا الاعتبار وإن كان عالما بالتحريم. بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية معاقبا عليها {ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ} يحتمل أن يكون المعنى: ثم يتوبون قبل معاينة الموت، فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب قطعا. وأما بعد حضور الموت فلا يقبل من العاصين توبة ولا من الكفار رجوع، كما قال تعالى عن فرعون: {حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي

أَمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ {الآية}. وقال تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ}. وقال هنا: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ} أي: المعاصي فيما دون الكفر. {حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} وذلك أن التوبة في هذه الحال توبة اضطرار لا تنفع صاحبها، إنما تنفع توبة الاختيار. . . . وختم الآية الأولى بقوله: {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}. فمن علمه أنه يعلم صادق التوبة وكاذبها فيجازي كلا منهما بحسب ما يستحق بحكمته، ومن حكمته أن يوفق من اقتضت حكمته ورحمته توفيقه للتوبة، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله خذلانه. (٢٦)

٢- عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، -صلى الله عليه وسلم- : "إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِهِ مَا لَمْ يُغْرَرْ". (٢٧)

الثاني: أما توقيت زمان التوبة في حقِّ عُمْرِ الدُّنْيَا، فأن تكون قبل طلوع الشمس من مغربها،

١- عَنْ أَبِي مُوسَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا" (٨).

٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- : "مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ". (٩).

٣- وَعَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- ذَكَرَ بَابًا مِنَ الْمَغْرِبِ مَسِيرَةَ عَرْضِهِ أَوْ يَسِيرُ الرَّكْبُ فِي عَرْضِهِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَامًا - قَالَ سُفْيَانُ أَحَدُ الرُّوَاةِ: قَبْلَ الشَّامِ - خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مَفْتُوحًا لِلتَّوْبَةِ لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ (١٠).

٤- كَذَلِكَ الْأُمَمُ الْمَخْسُوفُ بِهَا انْقَطَعَتِ التَّوْبَةُ عَنْهُمْ بِرُؤْيَيْهِمُ الْعَذَابَ. قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَرًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ، فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ، فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} [غافر: ٨٢-٨٥] (١١١)

ثانيا - لماذا نتوب؟ فضائل التوبة:

١- أن التوبة سبب الفلاح، والفوز بسعادة الدارين: قال تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (النور: ٣١).

وقال ابن القيم: فكل تائب مُفلحٌ، ولا يكون مُفلحاً إلا من فعل ما أُمر به وترك ما نُهي عنه. (١٢٢) ودل هذا، أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة، لأن الله خاطب المؤمنين جميعاً. (١٣)

وإذا كان الفلاح معلقاً على التوبة في هذه الآية فماذا تعني كلمة الفلاح؟

قال النووي: وَالْفَلَاحُ الْفَوْزُ وَالنَّجَاةُ وَإِصَابَةُ الْخَيْرِ قَالُوا وَلَيْسَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ كَلِمَةٌ أَجْمَعُ لِلْخَيْرِ مِنْ لَفْظَةِ الْفَلَاحِ (١٤)

وقال ابن تيمية: فَالْقَلْبُ لَا يَصْلُحُ وَلَا يُفْلِحُ وَلَا يَلْتَذُّ وَلَا يُسَرُّ وَلَا يَطِيبُ وَلَا يَسْكُنُ وَلَا يَطْمَئِنُّ إِلَّا بِعِبَادَةِ رَبِّهِ وَحُبِّهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ. وَلَوْ حَصَلَ لَهُ كُلُّ مَا يَلْتَذُّ بِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ لَمْ يَطْمَئِنَّ وَلَمْ يَسْكُنْ إِذْ فِيهِ فَقْرٌ ذَاتِي إِلَى رَبِّهِ وَمِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْبُودُهُ وَمَحْبُوبُهُ وَمَطْلُوبُهُ وَبِذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ الْفَرَحُ وَالسُّرُورُ وَاللَّذَّةُ وَالنَّعْمَةُ وَالسُّكُونُ وَالطَّمَأْنِينَةُ. (١٥)

٢- في التوبة نجاة من الوصف بالظلم الذي وعد الله أهله بالعذاب الأليم:

قال ابن القيم: قَالَ تَعَالَى {وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الحجرات: ١١] قَسَمَ الْعِبَادَ إِلَى تَائِبٍ وَظَالِمٍ، وَمَا ثُمَّ قَسَمَ ثَلَاثَ الْبَتَّةِ، وَأَوْقَعَ اسْمَ الظَّالِمِ عَلَى مَنْ لَمْ يَتُبْ، وَلَا أَظْلَمَ مِنْهُ، لِجَهْلِهِ بِرَبِّهِ وَبِحَقِّهِ، وَبَعِيبِ نَفْسِهِ وَآفَاتِ أَعْمَالِهِ. ([١٦])

٣-التأسي بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وطاعة أمره؛ فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه -صلى الله عليه وسلم- أَنَّهُ قَالَ: " وَاللَّهِ إِنِّي لَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً" ([١٧]) وعن الأغر بن يسار المزني -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةً" ([١٨]).

وعن ابن عمر، قَالَ: كَانَ تُعَدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقُومَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ. ([١٩]) فَصَلَّاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَى أَعْلَمِ الْخَلْقِ بِاللَّهِ وَحَقُّوقِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَمَا يَسْتَحِقُّهُ جَلَالُهُ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ، وَأَعْرَفَهُم بِالْعُبُودِيَّةِ وَحَقُّوقِهَا وَأَقْوَمَهُمْ بِهَا. ([٢٠]) وفي هذا تحريض للأمة على التوبة والاستغفار فإنه مع كونه معصوماً وكونه خير الخلائق يستغفر ويتوب سبعين مرة؛ واستغفاره ليس من الذنب بل من اعتقاده أن نفسه قاصرة في العبودية عما يليق بحضرة ذي الجلال والإكرام([٢١])

٤- تكفير السيئات: فإذا تاب العبد توبة نصوحاً كفر الله بها جميع ذنوبه وخطاياها. قال — تعالى —: لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ[التحریم: ٨]. أي: توبة ترفع الخروق، وتسد الخلل. من (النصح) بمعنى الخياطة. أو توبة خالصة عن شوب الميل إلى الحال الذي تاب عنه، من (النصوح) بمعنى الخلوص([٢٢]) وقال السعدي: قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضياءه، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفت الأنوار، التي لا تعطى المنافقين، ويسألون الله أن يتم لهم نورهم فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم ما معهم من النور واليقين، إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح. والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه والقرب منه، ويستمر عليها في

جميع أحواله. ([٢٣]) وَنِدَاؤُهُ لَهُمْ بِوَصْفِ الْإِيمَانِ فِيهِ تَهْيِيجٌ لَهُمْ، وَحَثٌّ عَلَى امْتِنَالِ الْأَمْرِ؛ لِأَنَّ الْإِتِّصَافَ بِصِفَةِ الْإِيمَانِ بِمَعْنَاهُ الصَّحِيحِ، يَقْتَضِي الْمُسَارَعَةَ إِلَى امْتِنَالِ أَمْرِ اللَّهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ ([٢٤])

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- مرفوعا: "إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا فَقَالَ يَا رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاعْفِرْهُ لِي فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ فَعَفَرَ لَهُ ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا آخَرَ وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ يَا رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا آخَرَ فَاعْفِرْهُ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ فَعَفَرَ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا آخَرَ وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ يَا رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا آخَرَ فَاعْفِرْهُ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، فَقَالَ رَبُّهُ: غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ". ([٢٥])

قَالَ الْمُنْذِرِيُّ: قَوْلُهُ فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ: مَعْنَاهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ مَا دَامَ كُلَّمَا أَذْنَبَ ذَنْبًا اسْتَغْفَرَ وَتَابَ مِنْهُ وَلَمْ يَعُدَّ إِلَيْهِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا آخَرَ فَلْيَعْمَلْ إِذَا كَانَ هَذَا دَابَّةً مَا شَاءَ؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا أَذْنَبَ كَانَتْ تَوْبَتُهُ وَاسْتِغْفَارُهُ كَفَّارَةً لَذَنْبِهِ فَلَا يَضُرُّهُ لَأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُ يُذْنِبُ فَيَسْتَغْفِرُ مِنْهُ بِلِسَانِهِ مِنْ غَيْرِ إِقْلَاعٍ ثُمَّ يَعَاوِدُهُ فَإِنَّ هَذِهِ تَوْبَةُ الْكَذَّابِينَ. ([٢٦])

٥- النجاة من سواد القلب وحجبه بالران فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- يرفعه: "إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نَكَتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءً، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} ([٢٧]). شَبَّهَ الْقَلْبَ بِثَوْبٍ فِي غَايَةِ النَّقَاءِ وَالْبَيَاضِ وَالْمَعْصِيَةِ بِشَيْءٍ فِي غَايَةِ السَّوَادِ أَصَابَ ذَلِكَ الْأَبْيَضَ بِالضَّرُورَةِ أَنَّهُ يُذْهَبُ ذَلِكَ الْجَمَالَ مِنْهُ وَكَذَلِكَ الْإِنْسَانُ إِذَا أَصَابَ الْمَعْصِيَةَ صَارَ كَأَنَّهُ حَصَلَ ذَلِكَ السَّوَادُ فِي ذَلِكَ الْبَيَاضِ فَإِذَا هُوَ أَيْ الْعَبْدُ نَزَعَ أَيْ نَفْسَهُ عَنْ ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي وَاسْتَغْفَرَ أَيْ سَأَلَ اللَّهَ الْمَغْفِرَةَ وَتَابَ أَيْ مِنَ الذَّنْبِ سُقِلَ قَلْبُهُ بِالسَّيِّئِ الْمُهْمَلَةِ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَفِي رِوَايَةٍ أَحْمَدَ سُقِلَ بِالصَّادِ قَالَ فِي الْقَامُوسِ السَّقْلُ الصَّقْلُ وَقَالَ فِيهِ صَقَلَهُ جَلَاءُ انْتَهَى وَالْمَعْنَى نَظَّفَ وَصَفَّى مِرَاةَ قَلْبِهِ لِأَنَّ التَّوْبَةَ بِمَنْزِلَةِ الْمِصْقَلَةِ تَمْحُو وَتَسْخِ الْقَلْبَ وَسَوَادَهُ حَقِيقًا أَوْ تَمَثِيلًا. وَإِنْ عَادَ أَيْ الْعَبْدُ فِي الذَّنْبِ وَالْخَطِيئَةِ زِيدَ فِيهَا أَيْ فِي النُّكْتَةِ السَّوْدَاءِ حَتَّى تَعْلُوَ أَيْ هَذِهِ

النكت قلبه أي تطفئ نور قلبه فتعمي بصيرته وهو النثر المستفح المستعلى الرأ الذي ذكر الله أي في كتابه [٢٨]

٦- التائبون يبذل الله سيئاتهم حسنات: فإذا حسنت التوبة بدّل الله سيئات صاحبها حسنات، قال — تعالى: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} (الفرقان: ٧٠). وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح. [٢٩]

٧- التوبة سبب للمتاع الحسن، ونزول الأمطار، وزيادة القوة، والإمداد بالأموال والبنين: قال تعالى: [وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ] (هود: ٣). وقال — تعالى — على لسان هود — عليه السلام: [وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ] (هود: ٥٢). وقال على لسان نوح — عليه السلام —: [فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا] (نوح: ١٠-١٢). [٣٠]

٨- أن الله يحب التوبة والتوابين: فعبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله وأكرمها؛ كما أن للتائبين عنده — عز وجل — محبة خاصة، قال — تعالى —: [إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ] (البقرة: ٢٢٢). ومن محبته لهم فرحه بتوبة أحدهم أعظم فرح وأكمل، وهي التاسعة

٩- أن الله يفرح بتوبة التائبين: فعن أنس رضي الله عنه - ، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- : لِلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيْسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةٌ عِنْدَهُ، فَاخَذَ بِخَطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ. [٣١]

ومعلوم أن لهذا الفرحة تأثيراً عظيماً في حال التائب، وقلبه، ومزيد هذا الفرحة لا يعبر عنه.

١٠- التوبة توجب للتائب آثاراً عجيبة من المقامات التي لا تحصل بدون التوبة: فتوجب له المحبة، والركة واللفظ، وشكر الله، وحمده، والرضا عنه؛ فرُتّب له على ذلك أنواع من النعم لا يهتدي العبد لتفاصيلها، بل لا يزال يتقلب في بركاتها وآثارها ما لم ينقضها أو يفسدها. ومن ذلك حصول الذل، والانكسار، والخضوع لله — عز وجل — . والذل والانكسار روح العبودية، ولُبّها؛ ولأجل هذا كان أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد؛ لأنه مقام ذل وانكسار، . . . ([٣٢]).

ثالثاً- كيف يتوب العبد؟ فالتوبة عمل لا تقتصر على كلام يقال أو تلقين من شيخ لمذنب بل لا بد فيها مما يلي:

١- الإخلاص وذلك بأن يكون الباعث على التوبة وجه الله والخوف من عذابه ورجاء ثوابه؛ ولأن الله أمر بها ولا يكفي أن يكون ذلك لأجل الظروف الصحية أو المادية أو السن أو المنصب أو الولد أو الزوجة بل لابد أن يكون لوجه الله. كما سبق في قوله: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ} أي: لا

لمقصد غير وجهه، من سلامة من آفات الدنيا، أو رياء وسمعة، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة. ([٣٣])

٢- الاعتراف الذنب؛ فالذي لا يعترف بذنبه لا يتوب منه ورأس المعترفين آدم عليه السلام ورأس المبررين للذنب إبليس لعنه الله فليُنظر اللبيب بأي يقتدي.

وإليك شيئاً مما ورد في هذا المعنى؛

أ- حديث شدّاد بن أوس رضي الله عنه الذي لقننا فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- صيغة الاعتراف فقال: " سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذُنُوبِي فَاعْفُرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ " قَالَ: "وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ" ([٣٤])

ب- عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: فِي دَعَاءِ الْإِسْتِفْتَاكِ " اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي، فَاعْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ "([٣٥]).

ج- وعن عائشة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لها: فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ([٣٦]).

د- وقد ثبت اعتراف آدم إلفقاده اعترافه إلى التوبة والهداية وثبت تبرير إبليس فقاده تبريره للذنوب إلى الطرد من رحمة الله كما قال تعالى: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ٢٣] قال الطبري: وَهَذَا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ عَنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ فِيمَا أَجَابَاهُ بِهِ، وَاعْتَرَفَاهُمَا عَلَى أَنْفُسِهِمَا بِالذَّنْبِ، وَمَسَّالَتْهُمَا إِيَّاهُ الْمَغْفِرَةُ مِنْهُ وَالرَّحْمَةُ، خِلَافَ جَوَابِ اللَّعِينِ إِبْلِيسَ إِيَّاهُ. . ([٣٧]) فكانت نتيجة الاعتراف: {ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى}. وأما نتيجة تبرير إبليس فالطرد من الجنة كما هو معلوم.

هـ - واقرأ اعتراف موسى إقال تعالى: {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦)} - وما أجمل ما جاء في قصة نوح عليه السلام حيث قال الله تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧)}

ز- وأحسن بالتأسي بذي النون إحيث قال الله عنه: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)}

ح- وهل بلغك اعتراف المرأة الجهنية التي قال عنها النبي -صلى الله عليه وسلم- إنها تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم؟ إليك خبرها

عن عمران بن الحصين الخزاعي -رضي الله عنه- : أن امرأة من جهينة أتت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهي حبلى من الزنى، فقالت: يا رسول الله، أصبت حدًا فأقيمه عليّ، فدعا نبي الله -صلى الله عليه وسلم- وليها، فقال: "أحسن (١) إليها، فإذا وضعت فأتي" ففعل فأمر بها نبي الله -صلى الله عليه وسلم- فشدت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرجمت، ثم صلى عليها. فقال له عمر: تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت؟ قال: "لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله ع". [٣٨]

ط- وما أروع ما قال إخوة يوسف | ((قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) فكان الاعتراف سبيل العفو والصفح فأجابهم يوسف | (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) فالاعتراف يقود إلى التوبة وهو دليل على التوبة كذلك أما الكذب والتزوير وتوكيل المحامين للكذب في القضايا فحدث ولا حرج عن هذه الأمور التي يكذب فيها الناس حتى يصدقوا كذبهم وهم يعلمون أنهم انتفكوه

عن أم سلمة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ، قال: "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ

يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضَى لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا

يَأْخُذُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ" [٣٩]. فالاعتراف خير لك على حال.

ي- وقال تعالى: {وَأَخْرُوجُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} قال الرازي: فإن قيل: الاعتراف بالذنب هل يكون توبة أم لا؟ قلنا: مجرد الاعتراف بالذنب لا يكون توبة، فأما إذا اقترن به الندم على الماضي، والعزم على

تَرْكِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَكَانَ هَذَا النَّدَمُ وَالتَّوْبَةُ لِلْجَلِّ كَوْنِهِ مِنْهُيًا عَنْهُ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى، كَانَ هَذَا الْمَجْمُوعُ تَوْبَةً [٤٠]

٣- الإقلاع وهو ترك الذنب والترفع عنه ٤- الندم ٥- العزم على ألا يعود ٦- أن يعمل عملاً صالحاً وأن يثبت عليه ٧- أن يرد المظالم إلى أهلها؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : "مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ" [٤١]

رابعا: ما يعين على التوبة: ١-الإخلاص لله ٢-امتلاء القلب من محبة الله ٣-المجاهدة: ٤-قصر الأمل، وتذكر الآخرة: ٥-الاشتغال بما ينفع، وتجنب الوحدة والفراغ: ٦-البعد عن المثيرات، وما يُذكر بالمعصية ٧-مصاحبة الأخيار ومجانبة الأشرار. ٨-النظر في العواقب ٩-استحضار فوائد ترك المعاصي: قال ابن القيم — رحمه الله سبحانه الله رب العالمين! لو لم يكن في ترك المعاصي إلا إقامة المروءة، وصون العرض، وحفظ الجاه، وصيانة المال الذي جعل الله قواماً لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق، وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفساق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب أن تطفئة ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم، والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء له، والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تلقى له في قلوب الناس، وانتصارهم وحميتهم له إذا أُوذي أو ظلم، وذُبُّهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقرب الملائكة منه، وبعد شياطين الجن والإنس منه، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به لقدمه على ربه، ولقائه له، ومصيره إليه، وصغر الدنيا في قلبه، وكبر الآخرة عنده، وحرصه على الملك الكبير، والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووَجْدُ حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبين به، ودعاؤهم له،

وحصول محبة الله له، وإقباله عليه، وفرحه بتوبته، وهكذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبة له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه. ([٤٢])

١٠- استحضار أن الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة: فإنها إما أن توجب ألمًا وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضيق وقتًا إضاعته حسرة وندامة، وإما أن تتلذذ عرضًا توفيره أنفع للعبد من ثلثه، وإما أن تذهب مالًا بقاءه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدرًا وجاهًا قيامة خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاءها أذى وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تطرق لوضع إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب همًا وغمًا وحزنًا وخوفًا لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسي علمًا ذكره أذى من نيل الشهوة، وإما أن تشمت عدوًا وتحزن وليًا، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تحدث عيبًا يبقى صفة لا تزول؛ فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق. ([٤٣])

١١- استحضار أضرار الذنوب والمعاصي: فمن أضرارها حرمان العلم والرزق، والوحشة التي يجدها العاصي في قلبه، وبينه وبين ربه، وبينه وبين الناس. ومنها تعسير الأمور، وظلمة القلب، ووهن البدن، وحرمان الطاعة، وتقصير العمر، ومحق بركاته ([٤٤]).

([١]) (٩١/١) الصحاح.

([٢]) (التوبة وظيفة العمر ، والطريق إلى التوبة ل إبراهيم الحمد مسألة تعريف التوبة، وانظر: مدارج السالكين (٣١٣/١).

([٣]) معارج القبول (٣/ ١٠٤٠).

([٤]) صحيح مسلم (٢٧٦٦).

([٥]) مسلم (٢٧٦٦).

[٦] تفسير السعدي

[٧] رواه أحمد ط الرسالة (٦١٦٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٩٠٣).

[٨] مسلم (٢٧٥٩).

[٩] مسلم (٢٧٠٣).

[١٠] أخرجه: ابن ماجه (٢٢٦)، والترمذي (٣٥٣٥)، وقال: الترمذي: حديث حسن صحيح.

[١١] معارج القبول (١٠٤٤/٣).

[١٢] مدارج السالكين (٣١٣/١).

[١٣] تفسير السعدي سورة النور

[١٤] شرح النووي على مسلم (٨٧/٤).

[١٥] مجموع الفتاوى (١٩٤/١٠).

[١٦] سنن الترمذي (٣٤٣٤) وقال: حسن صحيح غريب، وصححه الألباني.

[١٧] البخاري (٦٣٠٧).

[١٨] مسلم (٢٧٠٢).

[١٩] سنن الترمذي (٣٤٣٤) وقال: حسن صحيح غريب، وصححه الألباني.

[٢٠] مدارج السالكين (١٩٧/١).

[٢١] دليل الفالحين (٩٥/١).

[٢٢] محاسن التأويل (٢٧٨/٩).

[٢٣] تفسير السعدي سورة التحريم

[٢٤] أضواء البيان (٥٢١/٥).

[٢٥] البخاري (٧٥٠٧)

[٢٦] الزواجر عن اقتراف الكبائر (٣٨٩/٢).

[٢٧] سنن الترمذي (٣٣٣٤) وقال حسن: صحيح، وحسنه الألباني.

[٢٨] تحفة الأحوذى (١٧٨/٩).

[٢٩] مدارج السالكين (٣١٠/١).

[٣٠] الطريق إلى التوبة

[٣١] صحيح مسلم (٢٧٤٧).

[٣٢] مدارج السالكين (٣٠٦/١).

[٣٣] تفسير السعدي سورة النور بتصرف.

[٣٤] البخاري (٦٣٠٦).

[٣٥] مسلم (٧٧١)

[٣٦] البخاري (٢٦٦١).

[٣٧] جامع البيان (١١٥/١٠).

[٣٨] صحيح مسلم (١٦٩٦).

[٣٩] صحيح البخاري (٧١٦٨)

[٤٠] مفاتيح الغيب (١٣٢/١٦).

[٤١] البخاري (٢٤٤٩).

[٤٢] الفوائد لابن القيم (١٥١/١).

[٤٣] الفوائد (١٣٩/١).

[٤٤] وانظر: الداء والدواء لابن القيم، وانظر تفصيل هذه الأمور في كتاب التوبة وظيفة العمر.